البعد الفقهي للعنف الفقه المطلوب

الدكتور يوسف الكودة

نشر في كتاب

ظاهرة التطرف والعنف..

من مواجهة الآثار إلى دراسة الأسباب

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى محرم 1428هـ موافق يناير 2007م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان 1439 / مايو 2018

البعد الفقهي للعنف
الفقه المطلوب

الدكتور يوسف الكودة (*)

ما يحدث من المتطرفين هو خدمة جليلة تقدم مجاناً لأعداء الإسلام، تتمثل في القيام بأفعال شنيعة من إتلاف للأموال، إضافة إلى العدوان وترويع الآمنيين من الناس.. وتقديم الإسلام بهذه الصورة المشوهة مما يؤدي إلى العمل على تنفير الكثيرين منه.

مقدمة:

أكرم الله البشرية ومنّ عليها بهذا الإسلام، الذي كفل لمن اتبعه الفوز والسعادة والعزة والسيادة ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه:123).. ولأن هذا الدين هو ختام الأديان فقد زوده الله سبحانه وتعالى بما يجعله خالداً وصالحاً لكل جيل وزمان، فلا يخلق أبداً، فهو دين الفطرة التي ينسجم معها ولا يتصادم، ويهذبها بلا مشقة ولا عنت، ويصونها بلا تضييق ولا حرج، ولقد وصل إلينا هذا الإسلام خالياً من كل إفراط أو تفريط، فكانت أمة الإسلام أمة وسطاً بين الأمم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:143).

(*) باحث.. عميد كلية المك نمر الجامعية.. (السودان).

يقول ابن كثير، رحمه الله: «والوسط هنا هو الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً أي خيرها» وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومن ذلك أيضاً: «الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر، كما بينت في الصحاح وغيرها».

ولكن يحاول بعضهم من وقت لآخر، أن يلصق بهذا الإسلام ما يشوه جماله وينعه، ويعكّر صفاءه قاصداً بذلك أو دون أن يقصد، فأحسن أحوال هؤلاء أنهم أصحاب نية حسنة، ولكن للأسف قد تقرر عند فقهائنا: «إن النية الحسنة لا تحسن العمل السيىء» فهل يا ترى هؤلاء هم الذين تنبّأ بهم رسول الله ﷺ عندما قال: «**سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الأَحْلامِ**» [1].

يقول الحافظ ابن حجر: «أحداث الأسنان: المراد أنهم شباب، سفهاء الأحلام، عقولهم رديئة».

قال النووي: «إن التثبت وقوة البصيرة تكون عند كمال السن وكثرة التجارب وقوة العقل»، وحقيقة إذا ما التقى الحماس مع قلة العلم ونقص في التجربة والإعراض عن أهل الذكر كان التطرف والغلو لا محالة.

فإن ما يقوم به هؤلاء، ولا سيما في الآونة الأخيرة، من قتل للأبرياء وإتلاف للمال وترويع للأمة والناس فقد ارتكبوا به جمعاً من الموبقات منها: أنهم يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق من إخوانهم من المسلمين وهذه كبيرة عظيمة، أو قتلهم لغير المسلم الذي لا يستحق القتل كالمستأمن أو من هو في حكمه ممن تتعاقد معهم

(1) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة.

الحكومات الإسلامية والعربية للاستفادة من خبراتهم، فإنهم وإن كانوا غير مسلمين فهم لا يستحقون القتل ولايجوز قتلهم طالما أنهم وفدوا إلينا بطرق نظمتها الدولة وسمحت لهم بالإقامة، فهم تحت حمايتها وذمتها وأمنها بل برها وقسطها؛ لأن ذلك يرغبهم في الإسلام.

ولكن للأسف ما يحدث من هؤلاء الغالين المتطرفين هو خدمة جليلة تقدم مجاناً لأعداء الإسلام ومن يتربص به من المتربصين، تتمثل هذه الخدمة في أفعال شنيعة ترتكب من إتلاف للأموال جراء تلك التفجيرات التي تدمّر من ورائها محال تجارية وبنايات وسيارات وقتل للأرواح من المدنيين الأبرياء، هذا إضافة إلى ترويع الآمنيين من الناس، وتصوير الإسلام بهذا الوجه المشوه مما يعمل على إبعاد الكثيرين عنه.

لذلك فإن ظاهرة الغلو هذه قد أصبحت من القضايا الشائكة التي تواجه الأمة الإسلامية في عصرها الحديث، ولقد تسببت في أضرار بليغة بالأمة الإسلامية مما شوه جمال الصحوة الإسلامية وعرقل المسيرة، الأمر الذي أوجب العلاج.

ولقد اخترت هذا البحث مساهمة مني في تشخيص وعلاج هذه الظاهرة متعرضاً لبعض صفات أولئك الغالين، وذكر بعض من الأسباب التي عملت على بروز هذه الظاهرة، كما تناولت أيضاً بعضاً من المحاولات للمساهمة في علاج هذه الظاهرة الخطيرة على الإسلام والمسلمين.

- في مفهوم كلمة «غلو»:

وحتى لا يبقى اللفظ نهباً يستخدمه كل حسب مصلحته وهواه فنرمي أناساً بتهمة الغلو والتطرف وهم ليسوا بمتطرفين، أو يدفع أناس عن أنفسهم تهمة

الغلو والتطرف وهم غالون متطرفون، فحتى لا يقع ذلك لابد من تحديد معنى هذا اللفظ وتجلية مفهومه، فإن ذلك، أي تحديد معنى الألفاظ والمصطلحات المستخدمة، يسهل العلاج وييسر الوصول للحق والصواب، يقول شيخ الإسلام ابن تيميه، رحمه الله: «فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة ومعان مشتبهة، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلاً عن أن يعرف دليله، ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئاً بل قد يكون في قوله نوع من الصواب، وقد يكون هذا مصيباً من وجه، وقد يكون الصواب في قول ثالث»[1] فمن هنا تبرز أهمية تحديد معنى الألفاظ.

ما هو المقياس؟

حقيقة أن تحديد مفهوم كلمة «غلو» تحتاج إلى مقياس دقيق وميزان سليم لا بخس فيه ولا شطط.

عرف الناس:

لا يصلح عرف الناس أن يكون مقياساً؛ لأن أعراف الناس متفاوتة وبيئاتهم متباينة وتربيتهم مختلفة، فمنهم الظالم لنفسه الغارق في شهواته، الذي يعتبر التزام السنة بإعفاء اللحية والزي الإسلامي (الحجاب) نوعاً من التشدد، أو حتى الحرص على الصلاة في جماعة نوعاً من الغلو في الدين. وفي المقابل طائفة أخرى تعتبر الاكتفاء بالفرائض تفريطاً، وتسوي بين الصغائر والكبائر، والأخذ بالرخص الشرعية

(1) الفتاوى، 114/12.

تقصيراً، وهكذا الناس متفاوتون في أذواقهم، مختلفون في أهوائهم، فلا يصلحون أن يكونـوا مقياسـاً، وإلا وقـع الفسـاد ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون: 71)، فالمقياس الصحيح هو اللغة والشرع.

الغلو لغة:

لقد تناولت المعاجم اللغوية مادة «غلو» بالشرح والإيضاح، ولكن نكتفي بطرف من ذلك.

قال ابن دريد الأزدي: الغلو: ارتفاع الشيء ومجاوزة الحد فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ أي لا تجاوزوا المقدار.. وقال الأزهري: غلا في الدين يغلو غلواً إذا جاوز الحد. وقال ابن زكريا: «تغالى لحم الدابة» إذا انحسر وبره، وذلك لا يكون إلا عن قوة وسمن وعلو. ويقول صاحب لسان العرب: أصل الغلا: الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء.

وغلا في الديـــن والأمر: يغلو: جاوز حده، وفي التنزيل﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾، وفي الحديث الشريف: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ**»[1] أي التشدد فيه ومجاوزة الحد. وقال ابن سيوه: غلت الدابه في ســـيرها غلواً واغتلت: ارتفعت فجاوزت حسن السير.. والاغتلال: الإسراع؛ وفي المصباح المنير: غلا في الدين غلواً من باب قعد: تصلب وتشدد حتى جاوز الحد. وقال الفيروز أبادي: غلا في الأمر غلواً جاوز حده، وبالسهم غلواً: رفع يديه لأقصى الغاية، وغلا السهم: ارتفع في ذهابه وجاوز المدى وفي النهاية لابن الأثير: غلا فيه، «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ**»: أي التشدد فيه ومجاوزة الحد. ومنه

(1) أخرجه النسائي، كتاب مناسك الحج.

حديث عمر «**أَلا لا تُغَالُوا بِصُدُقِ النِّسَاءِ**»[1]، وفي رواية «لا تغالو في صدقات النساء»: أي لا تبالغوا في كثرة الصداق. وأصل الغلا: الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء.

الغلو شرعاً:

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة:77)، وقال ﷺ: « **إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ**» قال ﷺ: « **هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ** .. قَالَهَا ثَلاثًا»[2]، قال النووي: «هم المتعمقون الغالون المجاوزون الحد في أقوالهم وأفعالهم»؛ وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ**»[3].

إذن يمكن أن نقول: بأن الغلو اصطلاحاً هو: «مجاوزة حدود ماشرعه الله بقول أو فعل أو اعتقاد».

- صفات الغالين في كل عصر:

والواقع أن هؤلاء الغالين المتطرفين تجدهم يشتركون في صفات على تاريخهم الطويل، فمن تلك الصفات:

1- الطعن والتضليل:

إن الطعن في أئمة الهدى وتضليلهم والحكم عليهم بالخروج عن العدل والصواب

(1) أخرجه أبو داود، كتاب النكاح.
(2) أخرجه مسلم، كتاب العلم.
(3) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب.

هو من أبرز صفات أولئك الغالين المتطرفين، وقد تجلت هذه الصفة في موقف ذي الخويصرة التميمي مع رسول الله ﷺ حين قال: يارسول الله اعدل؛ فقد عدَّ ذو الخويصرة نفسه أعدل وأورع من مُحَمَّد رسول الله ﷺ وحكم عليه بالجور والخروج عن العدل في القسمة؛ وهذه الصفة لازمتهم عبر التاريخ الطويل، يقول ابن تيميه، رحمه الله: «فهؤلاء أصل ضلالهم اعتقادهم في أئمة الهدى وجماعة المسلمين أنهم خارجون عن العدل وأنهم ضالون»[1].

2- الإكثار من العبادة:

وقد تنبأ بذلك الرسول ﷺ حينما قال: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلا صَلاتُكُمْ إِلَى صَلاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ**»[2].

فالمبالغة في العبادة من صيام وقيام وذكر وتلاوة قرآن أمر اشتهر به الغالون، وقد عرفوا باسم «القراء» لشدة اجتهادهم في التلاوة والعبادة.

يقول ابن الجوزي[3]: «فلما مات علي، ﷺ، أُخرج ابن ملجم ليقتل، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه، فلم يجزع ولم يتكلم، وكحل عينه بمسمار محمي فلم يجزع، وجعل يقرأ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ... إلخ﴾ حتى ختمها، وأن عينيه لتسيلان على قطع لسانه فجزع، فقيل له: لم تجزع؟ فقال: أكره أن أكون في الدنيا مواتاً لا أذكر الله، وكان رجلاً أسمر، في جبهته أثر السجود (لعنه الله)».

(1) الفتاوى، 497/28.

(2) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة.

(3) تلبيس إبليس.

ولكنهم لم يزكوا أنفسهم بهذه العبادة، إذ الفائدة من العبادة هي تزكية النفس، فكانت عبادة كالجسد بلا روح، والشجر بلا ثمر، فلم تهذب أخلاقهم، ولم تزك نفوسهم، فالعبادات ماشُرعت إلا لهذا، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾ (العنكبوت:45)، وقال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:183).

فما كان نصيبهم من القيام إلا السهر، ومن الصيام إلا الجوع، ومن التلاوة إلا بح الصوت، لذلك يقول ابن حجر: «لايكفي في التعديل ظاهر الحال ولو بلغ المشهود بتعديله الغاية في العبادة والتقشف والورع حتى يختبر باطن حاله القسوة على المسلمين:

ولقد عرف هؤلاء الغالون المتطرفون بالغلظة والجفوة، وقد كانوا شديدي القسوة والعنف على المسلمين، وقد بلغت شدتهم حداً فظيعاً فاستحلوا دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، فروَّعوهم وقتلوهم، أما أعداء الإسلام أهل الأوثان وغيرهم فقد تركوهم فلم يؤذوهم، وسيخبرنا الرسول ﷺ عن هذه الصفة بقوله: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ**»[1].

ولقد سجل التاريخ القديم والحديث صحائف سوداء لهؤلاء الغالين المتطرفين في هذا الشأن، فمن ذلك هذا الموقف المروع[2]: «لقي الخوارج في طريقهم عبد الله بن خباب فقالوا: هل سمعت من أبيك حديثاً تحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثناه قال: نعم، سمعت أبي يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم

(1) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد.
(2) تلبيس إبليس.

فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول، فقالوا: أنت سمعت هذا من أبيك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال: نعم.. فقدموه على شفير النهر، فضربوا عنقه فسال دمه كأنه شراك نعل، وبقروا بطن أم ولده عما في بطنها وكانت حبلى، ونزلوا تحت نخل مواقير - كثيرة الحمل بالرطب- بنهروان فسقطت رطبة فأخذها أحدهم فقذف بها في فيه، فقال أحدهم: أخذتها بغير حقها، وبغير ثمنها، فلفظها من فيه، واخترط أحدهم سيفه وأخذ يهزه فمر به خنزير لأهل الذمة فضربه به يجربه فيه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فلقي صاحب الخنزير فارضاه في ثمنه».

فهذه معاملة الغالين المتطرفين للمسلمين والكافرين: قسوة وشدة وعنف على المسلمين ولين ولطف وموادعه للكافرين، بينما القرآن يقول: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح:29).. فانظر كيف عكسوا الآية رأساً على عقب.

وفي مشهد آخر «حكي أن واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل في رفقة فأحسوا الخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: أن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا على العطب، فقالوا له: شأنك.. فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده، فقالوا: قد أجرناكم، قال: فعلمونا، قال: فجعلوا يعلمونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلت أنا ومن معي.. قالوا: فامشوا مصاحبين فإنكم إخواننا، قال: ليس ذلك لكم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ (التوبة:6) فأبلغونا مأمننا، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذاك

لكم فساروا بأجمعهم حتى بلغوا المأمن».

3- قلة الفقه:

إن من كبرى آفات هؤلاء الغالين المتطرفين ضعف فقههم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ونقصد بذلك سوء فهمهم وقلة تدبرهم وتعقلهم وعدم إنزال النصوص منازلها الصحيحة، وقد دلنا رسول الله ﷺ إلى هذا المعنى الخطير حيث قال فيهم: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»[1] فقد شهد لهم رسول الله ﷺ بكثرة التلاوة والقراءة لكتاب الله ومع ذلك هم مذمومون، قال الحافظ ابن حجر: «قال النووي: إنهم ليس لهم فيه حظ إلا مروره على لسانهم لا يصل إلى حلوقهم، فضلاً عن أن يصل إلى قلوبهم؛ لأن المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب».

وإليك تصوير الصحابة لفهم أولئك الغالين المتطرفين السيء: قال الإمام البخاري[2]: « وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَرَاهُمْ شِرَارَ خَلْقِ اللَّهِ، وَقَالَ: إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ»[3].

وعندما سمع سعيد بن جبير رأي ابن عمر سُرَّ بذلك وقال: مما يتبع الحرورية من المتشابه قول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:44) ويقرأون معها: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام:1) فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا قد كفر ومن كفر بربه فقد أشرك فيخرجون فيقتلون

(1) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة.

(2) البخاري، 282/12.

(3) أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين.

مارأيت لأنهم يتأولون هذه الآية.

قال نافع [1]: «إن ابن عمر كان إذا سئل عن الحرورية قال: يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم، وينكحون النساء في عددهم، وتأتيهم المرأة فينحكها الرجل منهم ولها زوج، فلا أعلم أحداً أحق بالقتل منهم».

هكذا سطحية في الفهم، وجور في الحكم، وشناعة في السلوك، وصدق الرسول الكريم ﷺ إذا يقول فيهم: «... **يُحْسِنُونَ الْقِيلَ وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ ... يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ**»[2].

4- حداثه السن وسفاهة الحلم:

ومما لوحظ على المتطرفين عن سبيل العدل والهدى «حداثة السن وسفاهة الحلم» وذلك مصداقاً لقوله ﷺ: «**سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الأَحْلامِ**» يقول الحافظ ابن حجر: «أحداث الأسنان المراد أنهم شباب، سفهاء الأحلام: عقولهم رديئة».. قال النووي: «إن التثبت وقوة البصيرة تكون عند كمال السن وكثرة التجارب وقوة العقل».

وفي عصرنا هذا رغم أن شباب الإسلام أقبل على دراسة دينه وتعلم أحكامه، وأخذ في التمسك به، وعظمه في قلبه بصدق وإخلاصٍ وعزمٍ وحماس إلا أن بعضهم خرج عن الاعتدال قليلاً أو كثيراً في نظرته للأمور وتقييمه لها وحكمه عليها، فكبر

(1) الشاطبي، الاعتصام، 2/183-184.

(2) أخرجه أبو داود، كتاب السنة.

صغائر وعظم هينات ورتب على ذلك أموراً خطيرة.

- من صفات الغالين اليوم:

ومما يلاحظ على المتطرفين مؤخراً، زيادة على ماهو معروف عن التطرف والمتطرفين في كل عصر:

1- تهويل الأمور:

والمراد بتهويلها تعظيم الأمور الخفيفة وإعطاؤها أكثر من حقها كأن تعطى المستحبات والمكروهات أكثر مما ينبغي، فيغالي مع حسن قصده وكثرة عبادته.

- من أسباب التهويل:

أ- عدم العلم بمراتب الأحكام، مما أدى إلى الخلط بين المندوب والواجب والحرام والمكروه، فأعطي المندوب فوق ما يستحق، وأعطي المكروه فوق ما يستحق، لذلك ينبغي الرجوع إلى كتب أصول الفقه.

ب- انقداح في ذهن هؤلاء الشباب، ولكثرة ما قرأوا وسمعوا عن فضل الالتزام بالسنن والمستحبات، أن التقصير في السنن والمستحبات كالتقصير في الواجبات، لا تقصير في الكمال.

ج- استهانة بعض المسلمين وتساهلهم بهذه السنن والمستحبات، مما أدى بهؤلاء الشباب لمزيد من مدح المستحب والعقوبة على تركه كالواجب، وإلى المزيد من إنكار المكروه والزجر على فعله كالحرام، شعوراً منهم أنهم يحافظون على هذا الدين.

- نماذج للتهويل:

– في الفروع:

انقسام المصلين في مسجد من المساجد وإنشاء صلاتين للظهر كل بإمام في وقتين مختلفين بسب خلافهم في فهم قوله ﷺ: «**أَبْرِدُوا بِالصَّلاةِ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**»[1] فمنهم من رأى أن الأمر لابد من تنفيذه وآخرون رأوا أن الأمر ليس للوجوب، وأن أمر الإبراد أمر تقديري، فاختلفوا إلى أن صار المصلون بالمسجد في جماعتين، بينما الحديث للإرشاد، أو غاية ما يكون الأمر فيه للندب أو الاستحباب.

– في العقيدة:

حدث خلاف حول مسألة (رؤية الكفار ربهم) فاتسع الخلاف وعظم ضرره إلى أن افترقوا وتهاجروا وتلاعنوا فتركوا الصلاة خلف بعضهم بعضاً، بما في ذلك صلاة الجمعة، فكتب إليهم شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله[2]، رسالة لينتظم أمرهم ويجتمع شملهم، وبيَّن الصواب وحدود الخلاف، وتأسف لما حدث، فقال: «ما كنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد، فالأمر في ذلك خفيف»، وقال: «إن هذه المسألة ليست من المهمات والتي ينبغي كثرة الكلام فيها وإيقاع ذلك إلى العامة والخاصة حتى يبقى شعاراً ويوجب تفريق القلوب وتشتت الأهواء»... إلى أن قال[3]: «وليست هذه المسألة فيما علمتُ مما يوجب المهاجرة والمقاطعة، فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سنة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا كما اختلف الصحابة، ﷺ، والناس بعدهم في رؤية النبي ﷺ في الدنيا،

(1) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق.
(2) الفتاوى، 485/6.
(3) الفتاوى، 502/6.

وقالوا فيها كلمات غليظة كقول أم المؤمنين عائشة، ﵂: «من زعم أن مُحَمَّداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم الفرية»، ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجراً ولا تقاطعاً، وكذلك ناظر الإمام أحمد أقواماً من أهل السنة في مسألة «الشهادة للعشرة بالجنة» حتى أدت المناظرة إلى ارتفاع الأصوات، وكان أحمد وغيره يرون الشهادة ولم يهجروا من امتنع عن الشهادة»... إلى مسائل نظير هذا كثيرة.

ويقول ابن تيميه، رحمه الله، في ذلك: «وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولوكان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجراً لم يبق بين المسلمين عصمة لا أخوة»[1].

2- الاستبداد بالرأي:

ومن أبرز معالم التطرف الحديث التعصب للرأي وعدم الاعتراف برأي (الغير) وفهمه، وإنكار ما عنده من الحق ما دام خالفه، وقد يبالغ بعضهم فيتجاوز حد التسفيه للرأي الآخر.

ومن أسباب ذلك الاستبداد:

أ- قلة العلم: وذلك لأن من جهل شيئاً عاداه، ومن لم يطلع على آراء الآخرين ويتعرف عليها لاشك أنه سيتمسك بما عنده.

ب- اتباع الهوى: فالهوى أيضاً والميول النفسية تؤثر على المرء فتجعله يتمسك برأيه، وتصده عن الاستجابة لآراء الآخرين ونصحهم.

- مفاهيم خاطئة:

ومن ضمن ما يتمسك به هؤلاء بعضاً من المفاهيم الخاطئة لبعض الجمل والقواعد،

(1) الفتاوى، 673/6.

التي فهمت فهماً غير صحيح أو هي أصلاً لم تكن صحيحة وإنما نشأت عن فهم خاطئ غير سليم، ومن ذلك قولهم:

1- الحق واحد لا يتعدد:

وهذا قول صحيح، ولكن في الحقيقة لم يحسن فهمه ولا تطبيقه هؤلاء كما ينبغي، فهناك قيد لا بد منه وهو أن الحق واحد لا يتعدد في الواقع ونفس الأمر أو في الحقيقية، أما بحسب ما يتجلى لنظر الناس فهو قسمان:

أ- قسم أظهره الله لنا وجلاه أتم جلاء: وأقام عليه الأدلة القاطعة الصريحة مثل: «الله واحد لاشريك له»، «وأن شهر الصوم هو رمضان» و«الحج لا يصح بدون الوقوف بعرفة»، فهذه المسائل ونظيرها الحق فيها واحد في الواقع ونفس الأمر وهو ظاهر لنا فلا يجوز فيها الاجتهاد.

ب- وقسم خفي علينا: وهو أدلته محتملة لعدة معان، فلا نستطيع الجزم به كجزمنا بالقسم الأول، فهذا القسم يسوغ فيه الاجتهاد وإعمال العقول والأفهام والاستنباط والآراء، يبذل فيه الجهد للوصول إلى الصواب.

لذلك لا يجوز في هذا القسم أن نضرب بآراء الآخرين ونرميها بالزيغ والضلال والفساد والبطلان تحت قاعدة: «الحق واحد لا يتعدد»، يقول شيخ الإسلام ابن تيميه، رحمه الله: «واجتهاد العلماء في الأحكام كاجتهاد المستدلين على جهة الكعبة، فإذا صلى أربعة أنفس كل واحد منهم بطائفة إلى أربع جهات لاعتقادهم أن القبلة هناك فإن صلاة الأربعه صحيحة والذي صلي إلى جهة الكعبة واحد وهو المصيب الذي له أجران، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « **إِذَا حَكَمَ**

الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[1].

2- اعتبار تأليف القلوب بترك المستحبات ضلالة:

قد يسعى بعض الناس لتأليف قلوب المسلمين وردهم إلى حظيرة دينهم رداً جميلاً، وقد يترك في سبيل ذلك بعض المستحبات، فوجدنا من يرميه بالتهاون والضلال، فهذا العمل ظن سيئ وصاحبه قد غابت عنه حقائق.

يقول ابن تيمية، رحمه الله: «يستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف هذه القلوب بترك هذه المستحبات؛ لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل هذا، كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت لما رأى في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متمماً (وقال: الخلاف شر)».

3- اعتبار الرقائق خرافة:

وقد وجدنا بعض الناس يرمون من يتكلم في الرقائق بالخرافة، لماذا؟ لأنهم رأوا أن الذين يكثرون في هذا الأمر هم أهل التصوف أو جهلة القصاص فعمموا الحكم، وهذا تجاوز ممنوع، ولو صبروا لكان خيراً لهم، وقد نسي هؤلاء أن كتب السنة مشتملة على أحاديث كثيرة من الرقائق وإصلاح النفوس، وقد كان السلف يحرصون على ما يرقق القلوب، فقد قال بعضهم: «حديث يرق له قلبي أحبَّ إليَّ من مائة قضية من قضايا

(1) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

شريح»[1].

4- اعتبار التأني جبناً:

ورأينا أيضاً أن تهمة الجبن والضعف تلصق بمن يتأنى ويتريث في دعوته ويصبر على الأذى ولا يتعجل في مجابهة الظالمين حتى تستكمل العدة وتؤسس القاعدة، وهذا من سوء الظن، ولقد غاب عن صاحب هذا الظن السيء أن الدعوة تحتاج إلى فقه دقيق، وأن خطوات الإصلاح تحتاج إلى نظر عميق، وأن الصبر على الأذى والتدرج في الخطوات من معالم فقه الرجل وقوته، فهذا رسول الله ﷺ يطمئن أصحابه بمجيء النصر ويدعوهم إلى الصبر وينهاهم عن العجلة: «**وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[2].

وعلى درب الصبر والتأني سار المصلحون المجددون، فهذا هو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، يتدرج في إصلاحه فيقدم هذا، ويؤخر هذا، فهل كان ضعيفاً؟!

5- اعتبار المداراة نفاقاً ومداهنة:

ورأينا بعض الناس لا يحسنون التمييز بين المداراة والمداهنة، فخلطوا بينهما خلطاً سيئاً، فإذا رأوا داعية يلين القول لرجل سيء شرير ويدعوه بلطف لحاجة الدعوة إلى أمن شره واتقاء سوئه، فإذا رأوا ذلك حملوا هذا على المداهنة، ولاسيما إذا كان بينهما خلاف.

(1) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص 119.

(2) أخرجه الإمام أحمد.

– الفرق بين المداراة والمداهنة:

إن المداراة خلق إسلامي بينما المداهنة صفة ممقوتة وليست من الإسلام في شيء، بل هي من صفات المنافقين، الذين يلهثون وراء الشهوات ويبيعون دينهم بدنياهم. والمداراة قد استخدمها الرسول الكريم ﷺ في دعوته مع بعض الأشرار السيئين اتقاءً لشرهم، فقد أخرج البخاري، «عَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: **بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ**.. فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ: كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**»[1].

– الشبه بين المداراة والمداهنة:

يقول الحافظ ابن حجر: «وقال القرطبي: في الحديث جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم والدعاء إلى البدعة في جواز مداراتهم واتقاء شرهم مالم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله»، ثم قال: «والفرق بين المدارة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين أو هما معاً، وهي مباحة وربما استحبت؛ والمداهنة هي ترك الدين لصالح الدنيا»، وقال ابن بطال: «المداراة من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة؛ وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأدب.

لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه».

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولاسيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك[1].

6- ظن هلاك الناس:

رأينا أناساً قد بلغ بهم سوء الظن مبلغاً غريباً لدرجة أن رأوا جميع الناس هالكين مع أن الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»[2]، قال النووي: «روي أهلكهم على وجهين مشهورين: رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر، ويؤيده أنه جاء في رواية رويناها في حلية الأولياء في ترجمة سفيان الثوري «فهو أهلكهم»، (يعني أشدهم هلاكاً). قال الخطابي: «معناه لايزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساويهم ويقول: فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم، أي أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه أحسن منهم».

7- من لم يكفر الكافر فهو كافر:

ومن العبارات التي اشتهرت على ألسنة من يلهبون الناس بسياط التكفير قولهم: «من لم يكفر الكافر فهو كافر»، وجعلوا هذه القاعدة مسوغاً لتكفير من يخالفهم في

(1) فتح الباري، 10/528-529.
(2) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب.

رأيهم. والحقيقة أن المراد بالكافر الذي من لم يكفره يكون مثله هو الشخص (المقطوع بكفره) الذي توفرت فيه جميع الشروط وانتفت عنه جميع الموانع، أو من كان كافراً من البداية ولم يدخل الإسلام أبداً، فمن لم يكفر هؤلاء وأمثالهم فهو مثلهم، وأما من اعتقد الإسلام وأتى بكثير من الشركيات لجهل أو شبهة فواجبنا تعليمه وبيان أن ذلك شركاً وكفراً قبل تكفيره.

ويظهر ذلك في رد الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب على من اتهمه بتكفير الناس بالعموم، قال: «وأما الكذب والبهتان مثل قولهم: إنا نكفر بالعموم ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، وإنا نكفر من لم يكفر ومن لم يقاتل، ومثل هذا وأضعاف أضعافه، وكل هذا من الكذب والبهتان والذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله».

إلى أن يقول الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب في رسالته إلى السويدي البغدادي: «وما ذكرت أني أكفر الجميع إلا من اتبعني وأزعم أن أنكحتهم غير صحيحة فيا عجباً كيف يدخل هذا في عقل عاقل، هل يقول هذا مسلم أو كافر أو عارف أو مجنون؟».. ثم يقول الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب: «فأنا أكفر من عرف دين الرسل ثم بعد ما عرفه سبه، ونهى الناس عنه وعادى من فعله، وهذا الذي أكفره وأكثر الأمة ولله الحمد ليسوا كذلك».

وفي ذلك كلمة جامعة لشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، يقول فيها: « إن كل من أقر بالله فعنده من الإيمان بحسب ذلك، ثم من لم تقم عليه الحجة بما جاءت به الأخبار لم يكفر، وهذا يبين أن عامة أهل الصلاة مؤمنون بالله ورسوله إلا من كان منافقاً يظهر الإيمان بلسانه ويبطن الكفر بالرسول فهذا ليس بمؤمن، وكل من أظهر

الإسلام ولم يكن منافقاً فهو مؤمن له من الإيمان بحسب ما أوتيه من ذلك، وهو ممن يخرج من النار ولو كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويدخل في هذا جميع المتنازعين في الصفات والقدر على اختلاف عقائدهم، ولو كان لا يدخل الجنة إلا من يعرف الله كما يعرفه نبيه ﷺ لم تدخل أمته الجنة فإنهم أو أكثرهم لا يستطيعون هذه المعرفة، بل يدخلونها وتكون منازلهم متفاضلة بحسب إيمانهم ومعرفتهم»[1].

(1) الفتاوى، 5/254- 255.

أسباب التطرف والغلو:

هناك أسباب كثيرة تسببت في بروز مثل هذه الظواهر، ظاهرة الغلو وظاهرة التكفير وظاهرة التطرف، ومن ضمن هذه الأسباب على سبيل التمثيل لا الحصر:

1- أسباب اجتماعية:

بعض الشباب، يرجع سبب تطرفهم إلى أسرهم وطبيعة العلاقة بينهما، فبعض الأسر قد تأثرت بمكائد أعداء الإسلام حتى انحرفت عن هدي ربها في كثير من تعاليمه فأنكرت على أبنائها الملتزمين بتعاليم الدين، الذين ينأوون عن مجاراتها في تقاليد الجاهلية، وأخذت تنظر إليهم نظرة سيئة، تارة سخرية واستهزاء وأخرى تخلفاً ورجعية، ويتبع ذلك قسوة في المعاملة وحرمان من مميزات أقرانهم، مما ألجأ بعض الشباب إلى استخدام العنف والهروب والعزلة والسخط والنقمة.

ومن القطاعات التي تؤثر في سلوك هؤلاء الشباب وتُوقِعهم في هذا السلوك: الجامعات والمدارس ومابها من أوضاع سيئة، ولاسيما في دول العالم الثالث الفقير، وكثير منها يدرس نظريات الكفر والإلحاد والمفاهيم الجاهلية في الأخلاق والاقتصاد والسياسة والاجتماع، مع عدم اهتمامهم بنشر أو تدريس الثقافة الإسلامية كما ينبغي.

2- أسباب نفسية:

أ- العجلة:

ومن هذه الأسباب النفسية العجلة، والعجلة غريزة نفسية في الإنسان، جُبِل عليها، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ (الإسراء:11).

وقد قص علينا القرآن مواقف عديدة من استعجال المسلمين، قال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ (الأنبياء:36-37).

قال الحافظ ابن كثير: «والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ﴾ (الأنبياء:37)».

والإسلام نهانا عن العجلة وأمرنا بتهذيبها، لأن في العجلة مضرة.

من دوافع العجلة:

- الحماسة الفائرة والعاطفة الجامحة.
- انتشار كثير من مظاهر الفساد.
- الرغبة الشديدة في جني ثمرة الجهد والعمل في الحال.
- قلة التحمل والخبرة وندرة التجربة.
- الفقر في منهج الإصلاح، فيقدم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم، ولا يحسن سلوك سلم الأولويات.
- الجهل بطبيعة النفس البشرية فيتعجل مطالبتها بما يثقل عليها.
- الهوى.

الإسلام ينهى عن العجلة:

قالت عائشة، رضي الله عنها: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلامِ نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا لَقَالُوا لا نَدَعُ

الزِّنَا أَبَدًا»[1] فعلى هذا المنهج، نهج الصبر والتأني، سار رسول الله ﷺ فكثيراً ما كان ينهى أصحابه عن العجلة إذا ما تعجلوا.

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، ﷺ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[2].

وهاهو خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز، ﷺ، يوضح منهج الإصلاح المثمر الناجح من خلال حواره مع ابنه الشاب المخلص المتحمس (عبد الملك)، قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز: «يا أبتي، ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فو الله ما كنت أبالي إذا أغلت بي وبك القدور في ذلك.

قال: يا بني، إنما أروِّض الناس رياضة الصعب، وإني لأريد أن أحيي الأمور فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه».

وفي موقف آخر قال له عبد الملك أيضاً: «يا أمير المؤمنين، ما أنت غداً قائل لربك إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها، ورأيت سنة فلم تحيها؟ فقال: يا بني، أشيءٌ حملك الرعية إليَّ؟ أم رأي رأيته؟ فقال: بل رأي رأيته من قبل نفسي، وعرفت

(1) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن.
(2) أخرجه البخاري، كتاب المناقب.

أنك مسؤول، فما أنت قائل؟ فقال له أبوه: رحمك إلي وجزاك من ولد خيراً، فإني والله أرجو أن تكون من الأعوان على الخير، يا بني إن قومك شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى ما أريد مكابدتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقاً تكثر فيه الدماء، ووالله لزوال الدنيا أهون علي من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا وهو يميت فيه بدعة ويحي فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟».

ويقول عمر بن عبد العزيز: «ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً».

ب– الاستعلاء بالطاعة:

ومن الأسباب النفسية الخطيرة كذلك، التي ابتلي بها طائفة من الغلاة: «الكبر والاستعلاء»، فأقبلوا على عبادة الله الظاهرة وأكثروا منها لكن فاتهم مراقبة نفوسهم فتسلل إليهم الكبر والاستعلاء، فاحتقروا غيرهم، عصاة وعباداً، ونسي هؤلاء أن التعمير ينبغي أن يكون للظاهر والباطن معاً لا أن ينشغل الإنسان بتعمير ظاهره مهملاً الباطن، قال شجاع بن شجاع الكرماني: «من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة، واعتاد الحلال، وكف بصره عن المحارم، لم تخطئ فراسته».

فنحن مطالبون بتعمير الباطن، كما أننا مطالبون بتعمير الظاهر، وإلا كانت الشخصية، التي تظهر بمظهرٍ طيب ولكنها تحمل الخراب في باطنها فيهون عندها القتل والسفك وهتك العرض وإتلاف المال، كما شاهدنا مؤخراً.

علاج التطرف والغلو

ورغم أن العلاج لهذه الظاهرة وسائله كثيرة ومتعددة، منها: الأسرة وأولي الأمر والإعلام وغير ذلك، إلا أني أود أن أركز على وسيلة هي على قائمة الوسائل ومن أهمها، إلا وهي الحوار؛ فالحوار من الأساليب الناجحة في علاج هذه الظاهرة وإليك نموذجاً:

لما انشق الخوارج على أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب تطوع ابن عباس، رضي الله عنهما، لمناقشتهم ومحاورتهم عسى أن يثوبوا إلى رشدهم؛ ولندع المجال لابن عباس، رضي الله عنهما، ليقص علينا ما حدث:

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «لما اجتمعت الحرورية يخرجون على عليّ قال: جعل يأتيه الرجل فيقول: يا أمير المؤمنين: خارجون عليك، قال: دعهم حتى يخرجوا، فلما كان ذات يوم قلت: يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة فلا تفتني حتى آتي القوم، قال: فدخل عليهم وهم قائلون، فإذا هم مسهمة وجوههم من السهر، وقد أثر السجود في جباههم كأن أيديهم ثغن الإبل، عليهم قمص مرحطة، فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس؟ وما هذه الحلة عليك؟ قال: ما تعيبون مني؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ أحسن ما يكون في ثياب يمنية، قال ثم قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾. [1] فقالوا: ماجاء بك؟ فقال: جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ، وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم

(1) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، 139.

عنكم، قال بعضهم: «لا تخاصموا قريشاً فإن الله يقول: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ فقال بعضهم: بلى فلنكلمنه، قال فكلمني منهم رجلان أو ثلاثة، قال: قلت: ماذا نقمتم عليه؟ قالوا: ثلاثاً. فقلت: ما هن؟ قالوا: حكّم الرجال في أمر الله، وقال الله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾؛ قال: قلت هذه واحدة، وماذا أيضاً؟ فقالوا: فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم ولئن كانوا كافرين لقد حل قتالهم وسبيهم؛ قال: قلت: وماذا أيضاً؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين؟ قال: قلت: أرأيتكم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما ينقض قولكم هذا أترجعون؟ قالوا: ومالنا لا نرجع!

قال: قلت: أما حكّم الرجال في أمر الله فإن الله قال في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ (المائدة:95)، وقال في المرأة وزوجها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ (المائدة:35) فصير الله ذلك إلى حكم الرجال، فناشدتكم الله أتعملون حكم الرجال في دماء المسلمين وإصلاح ذات بينهم أفضل أو في حكم أرنب ثمنه ربع درهم وفي بضع امرأة؟ قالوا: بلى هذا أفضل.. قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قال: فأما قولكم: قاتل فلم يسب ولم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة؟ فإن قلتم نسبها ونستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم، فأنتم ترددون بين ضلالتين، أخرجت من هذه؟ قالوا: بلى.

قال: وأما قولكم: محا نفسه من إمرة المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون: إن نبي

الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو قال رسول الله ﷺ: «**اكتب ياعلي: هذا ما صالح عليه مُحَمَّد رسول الله** ﷺ» فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول الله، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، قال رسول الله ﷺ: «**اللهم تعلم أني رسولك، امح يا علي واكتب: هذا ما اصطلح عليه مُحَمَّد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو**».. قال: فرجع منهم ألفان وبقي بعضهم فقتلوا أجمعين أ هـ.

وهذا يؤكد جلياً أن الحوار بين المختلفين، هو من أنجع السبل في علاج الأمور، إذن لابد للجميع أن يحي ذلك طالما أنه كان بالحكمة والموعظة الحسنة، وطالما أن الجميع لا يريد بذلك إلا الإصلاح.

والله ولي التوفيق.